الخارج أم صامتاً في المنفى ــ لا بد لهم من التوقف عند الصراحة الفكرية و« الحقيقة » الملازمة للانسان الذي لا يستطيع العيش بدون « حقيقة » : « ولكل انسان حقيقته » يضم حياته حولها فتحدد اهدافها وتعطيها دلالة ومضموناً » (المقدمات ، ص ١٢) . لقد تزامن بلوغ هشام شرابي الأربعين من عمره مع « صدمة الخامس من حزيران » ، فكتب متذكراً هذا التزامن الموحي والمطهر للفكر من رواسب الماضي ، العبارة التوفيقية التاليه :

« يقال ، عندما يدخل المرء في الأربعينات ينسى حماقات الشباب ويصبح محافظاً ، متشدداً . بلغت الأربعين ، ولكن ، بدلا من ان اصبح محافظا اصبحت ثورياً بتفكيري . فقد كانت سنة ١٩٦٧ بالنسبة الي بداية مرحلة جديدة من حياتي اخذت فيها باعادة النظر جذرياً بمواقفي الفكرية والسياسية السابقة جميعا . وكان ذلك نتيجة لالتقاء سنواتي الأربعين بصدمة الخامس من حزيران » (مقدمات لدراسة المجتمع العربي ، المقدمة ، ص ١٣) .

فالقارىء لمذكرات شرابي والمطلع على أمر هذا التحول الجذري في مواقفة الفكرية غداة هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، لا تفاجئه بعد الآن تلك العبارات التي يصف بها موقف شارل مالك من الذين « شبوا عن الطوق وخرجوا عن الدوران في فلك لهجة التسلط الكلامي والعجرفة الجوفاء واساليب التهكم الفكري » . ولقد جاءت الاحداث التي شهدها لبنان منذ ما ينيف على العشرين عاما ، لتثبت صدق وصحة التحليل الذي يقدمه شرابي في الجمر والرماد . ففي خريف العام ١٩٧٠ ، تسنى للمثقف العربي الذي درس الفلسفة في الجامعة الاميركية ببيروت تحت اشراف شارك مالك وتعرض لوطأة اسلوب التلقين« السلطوي » ان يكتشف بصورة قاطعة ومشرقة حقيقة الذين يتكلمون « باسم الحق والقيم العليا » ، وليس على القارىء الراغب في التوسع الا الرجوع الى كتابات سعيد تقي الدين ، حيث تطالعه مكتشفات شرابي بمفعولها الرجعي . ولا سيما في تلك المقالة الثابتة التي ترجع الى عقدين من الزمن وعنوانها « خلينا نشوفك » ــ والى سعيد تقي الدين يرجع الفضل الاول والاخير في نحت لفظة « الشملكة » (من شارل مالك) ! وفي معرض اشارة هشام شرابي الى قطع صلاته وعلاقاته الفكرية بشارل مالك (« منذ ذلك الحين انقطع الرباط الذي جمعني بشارل مالك . ولم يعد بالامكان تسويغ علاقتي به » ، ص ٣٠ من الجمر والرماد) ، ومنعا للاطالة المملة . يجدر بقارىء المذكرات ان يتذكر تلك الكلمات التي وردت في خاطر شرابي مقتبسة عن المفكر الفرنسي موريس ميرلوبونتي « تكمن في الشخص الذي ينادي دائما بالقيم العليا والأخلاق السامية وداخلية الانسان نزعة خفية للعنف والحقد والتعصب » . (ص ٢٩)

والنتيجة المنطقية لمسار تفكير استاذ الفلسفة الذي غادر الجامعة ليشغل منصب وزير لبنان المفوض في واشنطن سنة ١٩٤٥ . لا تتكشف امام طلابه حينذاك ، اذ اعتبروا رحيل استاذهم بمثابة خسارة لهم ومكسبا تجنيه اميركا . فالشق الثاني جاء بالفعل مكسبا اميركيا دون تردد :

« ولم يخطر ببالنا آنذاك ان ما سيفعله مالك في الولايات المتحدة هو التخصص في مهاجمة الشيوعية ومدح المسيحية ، ودعم الحرب الباردة ليعود الى لبنان ويصبح ايديولوجي اليمين المسيحي المتعصب »(ص ٣٩).

على ان المثقف العربي هشام شرابي في بحثه عن الثقافة الليبرالية النقدية («وقد افشلت الجامعة الأميركية في تلقيني إياها ») يتابع مسيرة وعيه من خلال التحاقه بجامعة شيكاغو فيبقى طيلة فترة طويلة نسبيا اسير الالتزام المسبق بوجهه نظر معينة « تعبر عن الايديولوجية المسيطرة ، وطابعها التأملي التجريدي ، الذي يميز الفكر البورجوازي باكلمه » (ص ١٢٠) فالفترة التي امضاها الوعي في دراسة الفلسفة تتيمز الى حد ما بمحاولة « التخلص من ادران ثقافتي الماضية » . لكن سفينة الوعي تسير مع التيار السائد ، مما يؤدي بالتالي الى تقبل المواقف الليبرالية المحافظة « دون تساؤل » ــ وهو الذي يشتهر عند عارفيه ومقدريه بكثرة التساؤل والتلذذ اللاواعي بطرح الاسئلة يمنة ويسرة دون كلل او تريث لاستقبال الجواب واتاحة الفرصة لصدور الرد .

بيد ان الصدق المقنن يبقى رائد المذكرات في تداعيها النفسي والزمني هذا بالاضافة الى نزعة الانتقاء والتوقف عند احداث وظواهر معينة والتركيز عليها دون سواها . وقد تكون لفظة « التأمرك » الفكري غير منصفة على الاطلاق ، ومن الانسب ان نصغي اليه متذكراً سيرة وعيه بين الجمر والرماد :